فبراير الأزرق

الدانوب الأزرق

معزوفة وأوبرا من تأليف: يوهان شتراوس/ الابن/ 1866

على إيقاع الفالس

فبراير الأزرق

اليوم.. جاءت مادلين باكرًا، وضعوا البيانو في المكان الذي أعَدَّه مُسبقًا؛ لم تَجد أفضل منه مكانًا ولا مِن رفيق صِباها، تُهديه آخر ذكرى لأختها الراحلة بعد أن حَطَّمُوا كل شيء في بيتِها، سَلّمَتْهُ كَنْزَها الأخير قبل أن تذهب للمُشاركة في الوقفةِ الاحتجاجيةِ مع زملائِها.

يضمُ مادلين لصدرهِ، وعيناهُ تعتذران للأخرى؛ إذْ تراقبهما من مكانها المعتاد، شدّت مادلين على يدها، فانهار الغضبُ الذي مَلَكَها لأيامٍ سابقةٍ؛ حينما ظلت مادلين تحكي له بصوتٍ خفيضٍ لا يصلُ إليها؛ وقد انشغل بحديثها، حتى بَدَا وكأنّه لا يشعر بوجودها على الإطلاق، الآن عيناها تلاحقان مادلين وهي تتجهُ نحو الباب كشهيدٍ مُحتَمَل.

التَقَتْهُ بعد غيابٍ طويل، تمْسَحُ يدِها على جسدِه الأسود اللامع، مفاتيحه العاج، صفحاتُ ذاكرة، وأبنوسُه الأسود، شاراتُ كبرياء، صورةُ السيدة المُلْصَقة عليه تُشبه مادلين، الآن عَرِفَتْ سر شعورها الغامض تجاهها: "وجهٌ نحيلٌ وبشرةٌ فاتحةٌ وشَعْرٌ بنيٌّ ناعمٌ ولامعٌ وقصيرٌ؛ ومقصوصٌ بحدةٍ عند أطرافه، نظارةٌ طبيةٌ صغيرة ذات إطار بنيّ، ورداءٌ بنيّ - أيضًا - لا يمكن لذاكرتها أن تُخطئه".

- الآنسة أنجيل؛ أخت مادلين الكبرى.

- إنها مُعَلِّمتي!

[شَدَتْنِي إلى حُجرة الموسِيقى بالمدرسة؛ فقد اقتربَ موعدُ الحفل، تجلسُ إلى البيانو، نعْزِف معًا، هي بصوتٍ خفيض، بينما تميلُ برأسِها

مُنصتةً، لم أنجح يومًا في إجادة العزف على البيانو، ولم أستطع استعمال كِلتا يدي في آنٍ، واحدة للإيقاع والأخرى تؤدي أداءً آخر، اخترت "الأكورديون"؛ إذ لا تقوم اليدُ اليسرى غالبًا إلا بضَخ الهواء، اندَهَشَتْ الآنسة أنجيل؛ حينما اكتَشَفَتْ اتقاني الشديد رغم غيابي الطويل عن التدريبات، وابْتَسَمَتْ حين أخبرتها أن المعزوفةَ كلّها تتردد في داخلي؛ حين أضع رأسي على الوسادة كل ليلة].

تدورُ حولَه، الإشاراتُ تسْرِي في عرُوقها، فتترقرق يمينها على المفاتيحِ المُصْفّرةِ، يضبط لها الإيقاع بيُسْراه، أصابعُ فنانٍ زَيّنَتْهَا التجاعيدُ؛ وَدّتْ لو تَضُمُّها إلى صدرها، في كل ثنيةٍ حياة؛ وَدّتْ لو عاشتها معه ورَسَمَا معًا تجاعيدَ الأيامِ، يشاركها بالإيقاعِ، صاعدًا سُلُّمَها، مناديًا في الجوابِ، خافتًا عند القرار.

يمناهُ تلتقي يدها الحرة من خلفِ ظهرها، يرجعان، ينسابُ "الدانوب الأزرق" وئيدًا من صفحاتٍ عَبَأَتْهَا أصابعُ الذاكرةِ بأنغامٍ ثلاثية الإيقاع؛ واحد.. اثنان.. ثلاثة، واحد.. اثنان.. ثلاثة، وفي مكانٍ ما على أرضٍ خضراء، ما يزال أناس يُسَكِّنونَ الألَمَ بخطواتٍ جامحةٍ؛ هل كانَ "شتراوس" يدرك حين أراد أن يصرع هزيمةَ وطنهِ، كم ستكون الشهوةُ مقدسةً حين يحتويها فالسُهُ؟ وأنّه - الآن - ثمة قلبان يصرعان اليأسَ والخيباتِ، وينشدان على دقاتِ خطواتهما موسيقى الحياة؟

هل كانت مصادفةً، أن يتجمد لهما الدانوب في فبراير- شهر ميلادها- فيَسْبَحا معًا فوق جليده؛ لفًّا ودورانًا وانزلاقًا بقدميهما الحافية، في باطنيهما دفء ينشقُ له الثلج، فيهبطان معًا إلى أعماق دافئة، يضربان بأرجلِهما؛ صاعدين على سطحِ مياهٍ ألهَمَهَا النيلُ الأزرقُ، الأزرقُ جدًّا، وشمسٌ مَدَّتْ ساقيها في نهارٍ شتويٍّ كان شديد البرودة.

المركبُ التي انتَشَلَتْهُما مزينةٌ بالأعلامِ، وعلى الشاطىء جموعٌ تهتفُ زاحفة نحو الميدان، تُظَلِلهم سماءٌ زرقاءٌ، زرقاءٌ جدًّا، الهُتاف نشيدٌ يكتُبُه الناس لوطنٍ أرهقته الأحلامُ الذابلةُ ومَزَّقَهُ الفقدُ، نشيدٌ هديرُهُ يدْحَرُ في طريقِه أي سدّ.

يعبُران مع الجموع الثائرة، تغمُرهمَا رعشةٌ، المياهُ تُثقِل ملابسهما، لكنّ روحيهما ملاك سابح، وفي تلك اللحظة تقفُ مادلين على سُلَّمِ النقابةِ بشعرِها الأبيض ورداِئها ذي الياقة الزرقاء، وعلى ناصيةٍ في مدينة بعيدة؛ ثلاثةُ رجال سود يعزفون موسيقى الـ"blues".

بَدَأَتْ الارتعاشةُ تهدأ؛ بعد أن أغلقَا بابَ المتجرِ خلفهما، الماءُ المُتساقط منهما، يصنعُ حولهما بحيرة زرقاء، رأسُها عصفورٌ مطمئنٌ في صدرِه، ويداهُ جناحا طائرٍ يحتضن وليدَه، آن للقلبِ أن يرتوي بقبلةٍ زرقاء؛ واحد .. ا ث ن ا ن.. ث ل ا ث ة.